الهجرة الريفية في الجزائر الظاهرة القديمة الجديدة

الدكتور: رشيد زوزو، جامعة، بسكرة، الجزائر

الملخص:

لقد عرف المجتمع الجزائري ظاهرة الهجرة منذ فجر تاريخه، وما تزال حتى الآن تشكل متغيرا أساسيا في بنائه الاجتماعى وفي العلاقة بين حواضره وأريافه. وفي هذا الصدد فقد عرف المجتمع الجزائري عدة فترات شهد فيها موجات هجرية بارزة .

ولعل الموجة الهجرية التى عاشها خلال مرحلة التحولات الأخيرة واحدة من أهمهـا وأكثرها تأثيرا. فظاهرة الهجرة الريفية ليست بظاهرة جديدة، لكن الجديد هو التغير الحاصل في حجمها وفي أنماطا وفي دوافعها وآثارها. ومن ثم جاءت هذه الدراسة لتلقى الضوء على تلك الحركة السكانية والعملية الاجتماعية في محاولة للوصول إلى ملامحها وخصائصها.

Résumé:

La société algérienne a connu le phénomène de l'exode rural depuis l'aube de l'histoire et ce phénomène continue d'être un variable essentiel dans la structure sociale et la relation entre les villes et ses compagnes. A cet égard la société algérienne a connu plusieurs périodes caractérisées par de nombreuses vagues d'exode. Cependant la vague d'exode qui l'a connue durant la dernière mutation est l'une la plus importante et plus influente .Le phénomène d'exode rural n'est pas nouveau, ce qui est nouveau c'est sa capacité, ses types, ses motivations et ses résultants.

Cette étude vient d'éclaircir les mouvements de la population et l'opération sociale pour en arriver à ses caractéristiques.

مقدمة

تعتبر الهجرة ظاهرة اجتماعية وجدت وما تزال توجد في كل زمان، ومن ثم ظلت محل اهتمام الباحثين والعلماء في مختلف مجالات الدراسات الإنسانية.وهكذا قامت دراسات كثيرة في مختلف المجتمعات لتلك التحركات السكانية سواء في إطار الدولة الواحدة (الهجرة الداخلية) أو تلك التي اجتازت الحدود (الهجرة الخارجية).

حيث اتخذت الدراسات الأولى وجهة ديموغرافية سكانية، ولما كانت الهجرة ليست انتقالا فيزيقيا فحسب لكنها أيضا بالإضافة إلى ذلك فعل اجتماعي و انفصال عن جميع الروابط الاجتماعية ثم توزيع العلاقات الاجتماعية للأفراد من ناحية أخرى أن دخلت دائرة اهتمام الباحثين الاجتماعيين فتناولوها بالدراسة والتحليل من شتى جوانبها وبنظرة كلية شاملة .

وفي سياق تلك الدراسات بدا الاهتمام واضحا اتجاه الهجرات الخارجية على المستوى الدولي والهجرة الريفية على المستوى الداخلي، باعتبارهما أبرز أشكال التحركات السكانية.

ولأهمية الهجرة الريفية وتجددها فسوف تظل بحاجة إلى مزيد من البحوث والدراسات بغية الكشف عن الاتجاهات المتميزة والعوامل المشتركة والمواقف التي تلتقي أو تتباين فيها سمات الهجرة بأنماطها الكثيرة والوصول إلى تعميمات أو نماذج نظرية يمكن من خلالها تفسير العلاقات والمتغيرات التي تتضمنها سائر أنماط الهجرة بأبعادها المختلفة.

لقد أضحت الهجرة الريفية موضوع كل عصر لأنها عملية مستمرة متكاملة ومترابطة وتتفاوت أشكالها وأبعادها وعواملها وخصائصها بل وآثارها بين المجتمع والآخر بل في المجتمع الواحد عبر مراحله التاريخية.

إن لكل ظاهرة جذورها التاريخية ـ على حد تعبير أوجست كونت ـ ومن ثم فإن تحليل هذا الموضوع سوف يكون في إطاره التاريخي والاجتماعي والاقتصادي، ذلك أن العمق التاريخي وتحديد الأبعاد التاريخية للهجرة في سياقها البنائي يمكن من تقديم بيانات ذات دلالة أشمل وأعمق.

فقد اتسم المجتمع الجزائري منذ فجر التاريخ ببنيات اجتماعية غلب عليها الطابع الزراعي والنظام العائلي القبلي إلى أن العلاقة مدن أرياف ظلت قائمة وفي إطار من التوازن، إلا أن الحقبة الاستعمارية الفرنسية والسياسات التي انتهجتها أدت إلى تحولات عميقة كان لها الأثر العميق اتجاه هذه العلاقة.

ثم جاء الاستقلال ليحدث تغييرا جذريا وجوهريا في البناء الاجتماعي للمجتمع الجزائري بفعل التطورات السريعة التي أملتها مقتضيات التغير الاجتماعي مما جعل ظاهرة الهجرة الريفية تأخذ بعدا أوسع ومفهوما أشمل وأعمق فكان لها التأثير الكبير على الاقتصاد والمجتمع.

فغداة الاستقلال انطلقت الهجرة بوتائر سريعة تحت تأثير مخلفات الاستعمار لتأخذ في التراجع بعد ذلك ولكن ببطء إلا أن التحولات الاجتماعية الكبرى خلال العشريتين الأخيرتين أحدثت هزة كبرى في المجتمع وخلخلة في العلاقة مدن أرياف فعدت نقطة تحول بارزة .

وعلى صعيد الهجرة الريفية والعلاقة مدن أرياف فقد أعيد توزيع الخريطة السكانية وتداخلت عوامل الطرد والجذب، فالظروف الأمنية التي كانت الأرياف مسرحا لها دفعت بالملايين إلى النزوح القسري من المناطق الساخنة إلى المدن تلك المدن المكتظة بالسكان.

وانطلاقا من هذا الواقع المتميز ومن منظور أن الهجرة الريفية عملية مستمرة تتفاوت أشكالها وتتباين أبعادها وعواملها وخصائصها وآثارها من مجتمع لآخر وفي المجتمع الواحد عبر مراحله التاريخية.

تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على ظاهرة الهجرة في ظل تلك التحولات المجتمعية ولتبرز خصوصية هذه الظاهرة في كل مرحلة.

وبصورة عامة يمكن طرح التساؤل التالي:

إلى أي حد تكون تلك التحولات قد أثرت في ملامح الهجرة الريفية وسماتها؟

1 . مفهوم الهجرة والهجرة الريفية

الهجرة في اللغة تعني الترك والمغادرة، يقال هجر الشيء إذا تركه. وفي اللغة الانجليزية يستعمل لفظ (Migration) ويعنى به عملية الانتقال، أما المصطلح الثاني فهو(Immigration) ويعني النزوح كما يعني الانتقال إلى الخارج، أما المصطلح الثالث فهو(Emmigratin) ويعني الهجرة الخارجية أو وصول المهاجر إلى المكان الذي هاجر إليه أو إقامته في موطن الضيافة .

واصطلاحا يعد مفهوم الهجرة واحدا من المفاهيم التي اختلف مفهومها من مجتمع لآخر ومن باحث لآخر .

كما جاء في القاموس الجغرافي للأمم المتحدة أن الهجرة " نوع من الحراك بين وحدة جغرافية وأخرى متضمنا التغير لمحل الإقامة "[1]. إلا أن هذا التعريف يعتريه قصور خاصة من حيث التباين الزمني وضعف الوسائل في قياس الهجرة.

أما عالم الاجتماع الأمريكي "لايفلي" فقد استند إلى متغير الزمان والمكان ومن ثم فهو يرى أن الحركات البشرية تصنف إلى ثلاثة أنواع [2] :

1. التحرك من محل إقامة ثابت .
2. الارتحال أو التنقل الدائم.
3. نقل محل الإقامة أو تغييره بصفة دائمة.

واعتبارا لذلك يصبح مفهوم الهجرة مفهوما واسعا ومتعلقا بتغيير مكان الإقامة وبالمدة الزمنية التي تستغرقها الهجرة ، ومن ثم فإن هذا التعريف يتصف بالعمومية ويكون بذلك أغفل العديد من خصائص الهجرة .

ومن التعاريف ما انصب وأضاف الأهداف والغايات ومن هذه التعاريف " الهجرة انتقال مجموعة من السكان من مكان لآخر انتقالا طويل الأمد مسبوق بتفكير منظم من قبلهم مبني على مجموعة من الأهداف والغايات ". إلا أن هذا التعريف يكون قد أغفل بعضا من الخصائص سيما تلك الهجرات الاضطرارية.

ومن أجل تحديد الهدف من الهجرة يمكن تعريفها بأنها "تغيير الإقامة من بيئة لأخرى بهدف العمل أو الإقامة أوكليهما " [3].

ومن التعاريف ذات الأبعاد المختلفة ذلك الذي أورده محمد شفيق والذي مؤداه " أن الهجرة هي انتقال للفرد أو للجماعة من مكان لآخر داخل الدولة الواحدة أوخارج حدودها السياسية بهدف معين وواضح ، والشخص يهاجر إما بإرادته أو قسرا عنه وهو إما أن يعود للإقامة في موطنه الأصلي أو يستقر بشكل نهائي في موطنه الجديد.[4]

وباستقراء تلك التعريفات واستعراض خصائص الظاهرة وأبعادها المختلفة :(البعد النفسي، البعد الزمني، البعد العددي، البعد السياسي، بعد الإقامة، بعد الهدف، بعد الموطن الاصلي).

ومن خلال ماسبق ومن واقع الهجرة الريفية في الجزائر يمكن ان نعرفها كالتالي:

" الهجرة الريفية هي عبارة عن هجرة من الريف إلى المدينة بشكل دائم أو مؤقت، وتوصف بأنها فردية، كما قد تكون اختيارية أو قسرية، وبهدف الإقامة أو العمل أو كليهما.

بالإضافة إلى مصطلح الهجرة الريفية هناك بعض المصطلحات الوثيقة الصلة به مثل مصطلحي: النزوح الريفي و الهجرة الزراعية.

فقد استعمل البعض مصطلح النزوح الريفي ليشير إلى الانتقال الجماعي لسكان الريف صوب المدن، وقد استعمل هذا المصطلح من طرف المدافعين عن القيم التقليدية خوفا من اندثارها بعد الانتقال إلى المدينة [5].

إلا أن الباحث الانجليزي (جراهام) كان قد استعمل لفظ الهجرة الريفية وقصد بها النزوح الريفي، وذلك بناء على اللفظ الانجليزي (Rural Exodus) ذي المدلول الواسع والذي يشمل الهجرة الداخلية وإهمال الأرياف والهجرة الريفية وإخلاء الريف من السكان [6]، كما يعني مفهوم النزوح الريفي (الانتقال والسير العشوائي للجماعات الريفية نحو مصير مجهول).

كما أن هناك مصطلح آخر وثيق الصلة بمصطلح الهجرة الريفية وهو الهجرة الزراعية أو النزوح الزراعي ويعنى به التخلي عن النشاط الزراعي دون أن يكون مصحوبا بانتقال جغرافي.

2 . البحوث والدراسات السابقة

تكمن أهمية البحوث والدراسات السابقة في أنها تسمح بتكوين إطار أكثر ثراء من المعلومات، فهي تعين الباحث في تحديد المفاهيم وتوجهه باطلاعه على المناهج المتبعة والأدوات المستخدمة ثم النتائج المتوصل إليها.

ومن هذه البحوث والدراسات ما يلي :

2. 1 . كمال بونوح، (**السياسات الزراعية في الجزائر وعلاقتها بهجرة اليد العاملة الفلاحية**)، رسالة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، جامعة قسنطين، 2001.(7)

انطلق الباحث من تساؤل رئيسي مؤداه: هل الأسباب الرئيسية لهجرة اليد العاملة الزراعية في الجزائر هي أسباب سياسية رسمية أم عوامل طرد وجذب طبيعية بين المدينة والريف.

وقد استخدم منهج المسح بالعينة، ومن الأدوات الاستمارة والمقابلة والوثائق والملاحظة، واتخذ من الشركة الوطنية للآلات الميكانيكية بعين اسمارة بقسنطينة مجالا للدراسة وانتهى إل النتائج التالية :

- بروز الأمية في الأوساط العمالية ذوي الأصول الريفية.
- من دوافع الهجرة تفتت المساحات الزراعية عن طريق الإرث، والنقص في الخدمات والتفاوت في المداخيل بين القطاع الزراعي وغير الزراعي.
- النظام التعاوني والعمل الجماعي فصلا بين الفلاح والأرض فهجر الريف.

2 .2 عبد اللطيف بن أشنهو، (**الهجرة الريفية في الجزائر**) الجزائر،1978).(8)

- انطلق الباحث فيها من إشكالية اندماج قوة العمل في السوق غير الزراعية وتضمنت الدراسة:
- قام في الباب الأول بدراسة المعطيات الإحصائية الكمية المتوفرة حول الهجرة الريفية منذ الاستقلال مع الوقوف بصورة خاصة عند الفترة الواقعة ما بين عامي 1966_1973 .
- وفي الباب الثاني حاول إعطاء تفسير لهذه الهجرة الريفية . أما الباب الثالث فقام بدراسة المعطيات الجديدة للسياسة الاقتصادية المطبقة في الأرياف وآفاق الهجرة الريفية، وقد انتهى إلى العديد من النتائج والتي منها:
- سارت الهجرة الريفية بمعدلات عالية خلال الفترة 1962ـ1966 إذ بلغت 600000 بمعدل 150000 سنويا ومرد ذلك عودة الجزائريين من تونس والمغرب ورحيل المعمرين .

- استمرار الهجرة خلال الفترة 1967ـ1973 ولكن بمعدلات أقل من الفترة السابقة إذ كانت في حدود 130000 سنويا.
- ارتفاع حجم العمالة غير الزراعية من 1,6 مليون نسمة سنة 1966 إلى 2,1 مليون سنة 1977 .
- أرجع أسباب الهجرة إلى ضعف الزراعة وعدم قدرتها على توفير مستوى من الدخل مقارنة بالقطاعات الاخرى.

3 .2 . خليل الصقور(**الهجرة الداخلية، أشكالها ، ودوافعها، وآثارها**)، الأردن، 2003 [9] .

انطلقت الدراسة من التساؤلات التالية:

- ✓ هل الهجرة الريفية هجرة عمل ام رفاه؟
- ✓ هل تم إعداد الريفي لمواجهة الحياة الحضرية ؟
- ✓ ما مدى التباين في الدخل بين الريفيين ؟
- ✓ هل هي هجرة زراع أم ملاكين ؟
- ✓ هل هي هجرة أفراد أم اسر ؟
- ✓ هل هي انتقائية ام عامة؟

وانطلاقا من تلك التساؤلات المطروحة بلور الفروض على الشكل التالي:

- ➢ هناك علاقة طردية بين النزوح وارتفاع مستوى التعليم أي بمعنى كلما ارتفع مستوى التعليم زاد الإقبال على الهجرة .
- ➢ ثمة علاقة قائمة بين الهجرة و الحالة الزواجية (أي العزاب اكثر هجرة).

- هناك علاقة بين النزوح و فئة العمر (20-39)بمعنى أن صغار السن أكثر هجرة.
- هناك علاقة طردية بين النزوح و مستوى حجم الملكية.
- هناك علاقة طردية بين النزوح و انخفاض الدخل.
- هناك علاقة بين النزوح و المشاركة الشعبية في التنمية.
- يفترض وجود علاقة بين النزوح و مستوى الخدمات الاجتماعية.

وفي سبيل التحقق من هذه الفرضيات استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي.و المنهج التجريبي. واعتمد في جمع البيانات على استمارتي استبيان :(1خاصة بالمهاجرين. 2 الخاصة بالمقيمين).

هذا وقد اتخذ من وادي الأردن المجال المكاني للدراسة بأغواره(الشمالي. الأوسط. الجنوبي).

أم مجال الدراسة البشري فقد كان الأهالي المهاجرين من وادي الأردن إلى عمان و الذين لم يهاجروا.واختار عينة الدراسة بحجم 100 مفردة.

وقد انتهت الدراسة إلى النتائج التالية:

- تفوق عوامل الطرد من الريف على عوامل الجذب في الحضر.
- غلبة الطابع الزراعي (زراع و ملاك).
- الذكور أكثر هجرة من الإناث.
- الفئة العمرية (20-39 سنة) هي المهيمنة حيث بلغت 65%.
- نقص في الماء و التعرض للفيضانات كظروف طبيعية طاردة.
- وجود تسهيلات من طرف الأقارب.شجعت المهاجرين على الهجرة.
- ازدياد الطلب على الخدمات الاجتماعية.

- عدم الرغبة في العودة.
- معظم المهاجرين ذوي مستويات تعليمية مرتفعة.
- هيمنة الأعمال الإدارية (55%).

4 .2 . جمال حمود حامد، (**الهجرة القسرية وأزمة المستوطنات البشرية** ـ حالة مدينة الخرطوم) ، كلية الهندسة والعمارة، جامعة الخرطوم،السودان،2000)(10)

تأتي أهمية هذه الدراسة للباحث في أنها استهدفت تحليل العلاقة بين الهجرة القسرية والنمو الحضري حيث ساهمت الحرب الأهلية في نزوح ريفي رهيب، وأن هذا المشهد قد عرفته الجزائر إبان الحقبة الاستعمارية وخلا ل العشرية الحمراء تحت ضربات الإرهاب.وقد توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج ومنها:

- دوافع الهجرة الريفية إلى الخرطوم واحدة وإن اختلفت مناطق الإرسال.
- السياسات التنموية المتخذة وتركيز تحديث القطاع الزراعي في وسط السودان وتركز المشاريع الصناعية والخدمية في العاصمة أدى إلى نزوح ريفي كبير .
- أسهمت الهجرة القسرية الناتجة عن الحرب الأهلية في نمو المدينة فتضاعف سكانها.
- أدى هذا النزوح القسري إلى ترييف المدينة.

3. الهجرة الريفية في الجزائر والجذور التاريخية

إن الهجرة الريفية في الجزائر إحدى الظواهر الاجتماعية القديمة الحديثة ذلك أن المجتمع الجزائري عرف هذه الظاهرة منذ فجر التاريخ، وحداثتها تكمن في أنها اتخذت طابعا مميزا وجديدا من حيث الحجم والاتجاه والنتائج والآثار،

والمتتبع لهذه الظاهرة يمكن أن يسجل محطات عدة يمكن أن نتناولها في أربع مراحل أساسية:

1.3 في العصور القديمة

إنه لمن الصعوبة بمكان توضيح السمات السوسيولوجية في هذه المرحلة لأن المصادر التاريخية ضئيلة ومتضاربة.

ففي العصور القديمة تشكل الشمال الإفريقي من بيئتين ريفية وحضرية ، إلا أن العلاقة بين المدينة والريف يبدو أنها ظلت محدودة ، لأن الحواضر ظلت تضم المحتلين من فينيقيين ورومان و وندال وبيزنطيين أما الأرياف فقد ظلت معقل السكان الأصليين (الأمازيغ).وحتى تلك الأرياف فقد مارس الغزاة اتجاهها سياسات تهجير من عنف وقتل وطرد في سبيل الاستيلاء على الأراضي فلم يجد السكان بدا من الهجرة نحو الجبال والمناطق الصحراوية.

2.3 في العصور الوسطى

وخلال الفترة الإسلامية حافظ المغرب الإسلامي على البيئتين الحضرية والريفية إلا أن العلاقة بين الريف والمدينة لم تكن ذات طابع عدائي وإن تميزت بسيطرة هذه الأخيرة لأنها أصبحت مركزا تجاريا هاما ومركزا سياسيا أيضا يحدد العلاقات التي تقوم بين السلطة المركزية والقبائل[11].

والسؤال المطروح: هل عرفت هذه المرحلة شكلا من أشكال الهجرة الريفية ؟ الجواب نعم فقد عرفت الفترة هجرات نحو المدن، تشير بعض المصادر أن حكام "نيهرت" احتاروا في كيفية التخفيف من هذه الهجرة حيث بلغت هذه الفئة الاجتماعية الجديدة درجة كبيرة من الثروة والنفوذ[12].

3.3 في الفترة العثمانية

وخلال الفترة العثمانية فإن الظاهر هو أن المدن كانت مهمشة ومنطوية على نفسها وأن الريف هو السائد، إلا أن هذه نظرة خداعة حيث كثرت المدن

المحصنة سكنها الأتراك وملكوا الأراضي الخصبة وطبقة من الأهالي التي لا تملك إلا قطعا صغيرة لا تتعدى المستوى الضروري للمحافظة على قوة العمل، فكانت هذه المدن مراكز للقبائل المهاجرة، وبهذا لم يكن هناك انفصال بين المدينة والريف[13]

أدى هذا الواقع وعدم المساواة تلك إلى زيادة الهجرة الريفية كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب[14]. وفي سبيل معرفة مصدر هذه الهجرة نحو مدينة الجزائر ـ كواحدة من المدن الكبرى التي استقطبت المهاجرين ـ فقد تشكلت من :

1. الزنوج الذين جلبوا من الجنوب .
2. القبائل (سكان بلاد القبائل): حيث يعملون ببأس للحصول على قوتهم ويعودون إلى عائلاتهم في الريف بعد أن يكون قد جمعوا بعضا من المال.
3. البرانيون: ويتشكلون من (البساكرة، السوفيين والميزابيين) وهم يشكلون الفئة الكادحة[15].

4.3 مرحلة الاستعمار الفرنسي:

عمد الاستعمار الفرنسي بعد دخوله الجزائر سنة 1830 على تفكيك الشعب الجزائري وزعزعة استقراره ، فعشية الغزو الفرنسي لم يتعد سكان المدن 6 % والبقية هم سكان الأرياف والبوادي.

ونتيجة للسياسة الاستعمارية الهادفة إلى الاستيطان والاستيلاء على أراضي الفلاحين بشتى الأساليب أن زعزعت استقراره مما أدى إلى ظهور حركات سكانية وهجرة.اتخذت الهجرة اتجاهات ثلاثة: اتجاه تخطى حدود الوطن نحو فرنسا وأوربا والشرق العربي، وهجرة نحو المدن الداخلية، وثالثة باتجاه مزارع المعمرين.

فقد سنت السلطة الاستعمارية قوانين مختلفة استهدفت كلها الاستحواذ على الأراضي، فاستولت على ممتلكات الأتراك وصادرت ممتلكات القبائل الثائرة واستحوذت على الأراضي الوقفية وأراضي العرش، فكان من شأن هذه السياسات والممارسات أن جردت السكان من أراضيهم، فتدفق سكان الأرياف بأعداد كبيرة اتجاه المدن الجزائرية علها توفر لهم أمنا وعيشا، فسجلت بذلك المدن الجزائرية زيادة سكانية كبيرة فسرها البعض تضليلا بالنمو الطبيعي إلا في أنها في الواقع تعبر عن نزوح ريفي كثيف ذلك أن الريف في تناقص مستمر بينما سكان المدن في تزايد مضطرد.

وإذا كان الاستعمار الفرنسي منذ دخوله الجزائر ظل يمارس سياسة التهجير إلا أن أعلى إحصائيات الهجرة الداخلية سجلت إبان الثورة التحريرية حين عمد الاستعمار إلى إخلاء الأرياف من سكانها، لأنهم كانوا دعامة الثورة والإمداد الطبيعي لها، فبدا النمو الحضري واضحا وطغت على السطح الأحياء القصديرية في محيط المدن بما حملته من مظاهر سلبية ما تزال حتى الآن.

فقد سجلت إحصاءات الأمم المتحدة مساهمة الهجرة الريفية في الزيادة السكانية ما بين 1960-1965 ما يساوي 54 % وهذا ما يعبر عن ضخامة الهجرة نحو المدن ويبرز سياساته وتركته ومخلفاته[16].

5.3 الهجرة الريفية بعد الاستقلال

يمكن أن نميز في هذه المرحلة بين ثلاث محطات أولاها غداة الاستقلال وثانيها مرحلة النظام والبناء الاشتراكي وثالثها حين حولت الجزائر وجهتها نحو اقتصاد السوق.

1.5.3 الهجرة غداة الاستقلال

فغداة الاستقلال تميزت هذه السنوات الأولى من الاستقلال (1962-1966) بوطأة مخلفات الاستعمار وتركته الثقيلة على مستوى الهجرة.

فقد عرف معدل النمو الحضري السنوي في الجزائر أعلى ارتفاعات في تاريخ الجزائر حين احتل سكانها الحضريون 30% من مجموع السكان لتحتفظ الأرياف بـ 70% الباقية[17].ومرد هذا النزوح الريفي:

- العائدون من تونس والمغرب والذين هم من أصول ريفية لم يعد منهم إلى الريف سوى 10% والبقية الباقية اتجهت نحو المدن حيث البيوت والعمارات الشاغرة التي تركها المعمرون بعد رحيلهم المكثف مع بداية الاستقلال.
- تبني السلطة لسياسة زراعية (التسيير الذاتي) في المجال الزراعي دون مراعاة خصائص المجتمع و ذهنيات فلاحيه فشكلت بذلك حاجزا بين الفلاح والأرض فولى وجهته شطر المدينة ونحو القطاعات الأخرى[18].

2.5.3 الهجرة إبان النظام الاشتراكي

وابتداء من 1966 وهي مرحلة البناء الاشتراكي بما حملته من مخططات تنموية المخطط الثلاثي (67/ 69) والمخططين الرباعيين (70-73/ 74-77) ثم المخططين الخماسيين في الثمانينيات إضافة إلى البرامج الخاصة بالولايات، مما أدى إلى تغيرات جذرية في الخريطة الصناعية بإقامة سلسلة من الوحدات الصناعية ومناطق وأقطاب صناعية مهمة مع توسيع شبكة الطرق وإقامة منشآت جامعية فكانت النتيجة أن هزت هذه المخططات الاقتصادية السكان هزة قوية جعلت سكان الأرياف يتوافدون على المدن حيث فرص التشغيل المتوفرة فكان أن هجر الريف أكثر من 1.7 مليون نسمة[19].

ومع حلول 1987 بلغ سكان الحواضر في الجزائر 49.8% من مجموع السكان، وبالمقارنة مع سنة 1977، يكون معدل النمو الحضري في حدود 4% إلا نصيب الهجرة نحو المدن يكون قد انخفض إلى 1%.

ويمكن تفسير ذلك بتوقف الاستثمارات في القطاع الصناعي وعودة الحياة إلى القطاع الزراعي بفضل تشجيع القطاع الزراعي الخاص واستقلالية المستثمرات الفلاحية وتحقيق تجربة الاستصلاح لنتائج مشجعة. وبشكل عام إعادة الاعتبار للقطاع الفلاحي.

وفي مقابل ذلك صعوبة العيش في المدن بسب الأزمة الاجتماعية والاقتصادية الحادة في مجالات التشغيل والسكن ومرافق الاستعمال بشكل عام.

ومع حلول تسعينيات القرن 20 دخلت الجزائر مرحلة جديدة فقد تخلت عن النهج الاشتراكي كلية فكانت نتيجة هذا التحول أن تخلت الدولة عن الاقتصاد فكان أن خصخصت الكثير من المؤسسات العمومية وغلق الكثير منها مع التقليص من عدد العاملين في المؤسسات التي تعاني من التضخم.

وفي مقابل ذلك توسيع تجربة الاستصلاح وباتخاذ تقنية الامتياز وإعادة الممتلكات المؤممة في إطار الثورة الزراعية إلى أصحابها الأصليين.

وبالرغم من أن هذه الظروف والتي شكلت عوامل طرد من المدن وعوامل جذب إلى الأرياف فعاد الكثير من العمال ذوي الأصول الريفية إلى مواطنهم الأصلية ودخل عالم الاستثمار في المجال الزراعي أعداد من المستثمرين مما فتحوا باب التشغيل واسعا. بالإضافة إلى عدم تحرج العاملين في القطاعات غير الزراعية من العمل في الأرياف هروبا من البطالة وبحثا عن عمل ومصدر رزق.

إلا أن الأزمة السياسية التي عرفتها الجزائر منذ 1991 إثر توقف المسار الانتخابي وتدهور الوضع الأمني وانتشار ظاهرة الإرهاب كان لها انعكاسات خطيرة على الأرياف خاصة في المناطق الساخنة مما أجبر الكثير من سكان الأرياف إلى الهجرة نحو المدن فرارا من المجازر التي ارتكبت في حقهم، فكان أن قدر عدد المهاجرين من المناطق النائية نحو المدن ما يزيد عن 3 ملايين إلى غاية 2001[20].

3.5.3 الهجرة الريفية في ظل التحولات الجديدة

و مع حلول تسعينيات القرن العشرين و في خضم التحولات و التغيرات الجذرية و تشجيع العلاقات الاقتصادية الليبرالية المتجسدة في فتح الباب على مصراعيه أمام القطاع الخاص و الاستثمارات الأجنبية فكانت النتائج الأولى لهذه التحولات حل المؤسسات الاقتصادية و تقليص العمال في مؤسسات أخرى فتصاعد منحنى البطالة ليتعدى 28 % فتدنى المستوى المعيشي و تفاقمت أزمة الإسكان و تراجعت مستويات الخدمات الاجتماعية بالإضافة إلى ظاهرة العنف و الإرهاب فكان تأثير هذه الظواهر على الهجرة الريفية واضحا .

وقد كشفت الدراسات والأرقام عن تغيرات عميقة في ملامح الهجرة وفي العلاقة مدن ـ أرياف في خضم هذه المتغيرات واستنادا إلى المعايير الجديدة المعتمدة في تصنيف المدن والأرياف والتي هي:

أولا: مؤشر التنمية البشرية والاجتماعية

ثانيا: مؤشر تنمية الاقتصاد الريفي

ثالثا: مؤشر البيئة

وبالاستناد إلى تلك المؤشرات اعتبرت حضرية كل بلدية يبلغ معدل التمدن فيها 50% والكثافة السكانية فيها أعلى من متوسط الكثافة في المنطقة التي توجد فيها (الشمال-الهضاب العليا- الجنوب) ليصبح واقع العالمين الحضري والريفي في الجزائر كالتالي:

- تعادل سكان الأرياف مع الحواضر مع نهاية 1990 بحصة 11.5 مليون نسمة لكل منهما.
- في سنة 1998 بلغ عدد سكان الحضر 17 مليون من مجموع 29.1 مليون عدد السكان على مستوى الوطن.

- وفي سنة 2005 بلغ عدد سكان الحضر 20.5 مليون في مقابل 13,4 مليون نسمة.
- بلغ عدد البلديات الحضرية 568 منها 384 تقع في الشمال و 120 توجد في الهضاب العليا و 58 في الجنوب.

بالرغم من الظروف الصعبة التي عاشها الريف الجزائري خلال العشريتين الأخيرتين من جفاف، نقص في الاستثمارات، انعدام الأمن ..الخ إلا أنه قد حافظ على حيويته، ومرد ذلك تحسن الظروف الأمنية- مؤخرا- مع تحسن في ظروف المعيشة في الوسط الريفي، هذه المعطيات تبين أن عدد سكان الأرياف ما يزال مهما.

إن تطور سكان الريف وتحضرهم تم بوتائر سريعة، هذا التحضر مثل معطى قويا، لأنه بلا شك سمح بتخفيف ضغط الهجرة على المراكز الحضرية.بين سنتي 1996، 2005 سجلت 877 بلدية من مجموع 979 رصيدا إيجابيا للهجرة أو ثابتا مقابل 613 بلدية بين سنتي 1987، 1998 ، 102 بلدية فقط تواصل تسجيل رصيد هجرة سلبي مقابل 366 بين 1987، 1998 ومن 102 يقع 78 % منها في محيط المدن الكبرى.

وعلى مستوى الملامح السوسيولوجية للهجرة فقد كشفت دراستنا[21] عن تغيرات عميقة في ملامح الهجرة سواء في عواملها أو في أشكالها و آثارها و في خصائص القائمين بها.

وإن ظل العامل الاقتصادي كدافع للهجرة دافعا قائما فإن طبيعة المرحلة قد أفرزت عوامل اجتماعية و أخرى تعلقت بالأمن و الاستقرار، فالمأساة الوطنية سيما خلال العشرية السوداء كانت قد قذفت بالآلاف نحو المدن والحواضر

و لما كانت دوافع الهجرة ليست بالضرورة الاقتصادية و بحثا عن فرص العمل فقد كان تأثيرها على الخصائص الاجتماعية للمهاجرين واضحا [22].

فلم يعد الذكور أكثر هجرة بنفس القدر بل إن الشواهد تشير إلى أن الإناث سوف تحتللن مركزا متقدما بالنظر إلى ارتفاع مستوياتهن التعليمية، وأن المدينة سوف تظل تستقطب الأكثر تعليما.

وعن خاصية السن فإن الهجرة الريفية أصابت الشباب والكهول على السواء، لتتجه إلى الفئات الأكبر سنا، فكان لهذه الخاصية علاقة بارتفاع نسبة المتزوجين خلافا لما انتهت إليه الكثير من الدراسات .

أما من حيث أنماط الهجرة و أشكالها فقد أظهرت أولى النتائج الهجرة القسرية جراء العنف والإرهاب وما دعم تلك الأبعاد الزمانية والمكانية والنفسية.

وعلى مستوى آثار الهجرة ومصاحباتها فإن الدراسة لم تقتصر على المهاجرين فقط بل حاولت رصد الظروف البنائية لكل من مناطق الطرد والجذب لتنتهي إلى أن عملية الهجرة كان لها الآثار الايجابية والسلبية وعلى المستويات الثلاثة وإن بدت عملية الهجرة وظيفية إزاء المهاجر وأسرته من حيث حصوله على عمل وأجر ثابتين، فإنها على صعيد الأرياف والحواضر بدت غير وظيفية سيما ما تعلق بإفراغ الأرياف من طاقاتها واكتظاظ المدن بساكنيها.

❖ **هوامش البحث :**

(1) أحمد الربايعة: **دراسات في نظرية الهجرة و مشكلاتها الاجتماعية و الثقافية**، دار الثقافة و الفنون، عمان ،1978، ص12

(2) حسين خريف: **المدخل إلى الاتصال و التكيف الاجتماعي**، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث و الترجمة، جامعة قسنطينة، 2005، ص112.

(3) كمال بوناح: **السياسات الزراعية في الجزائر و علاقتها بهجرة اليد العاملة الفلاحية**، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة قسنطينة، قسم علم الاجتماع،2001، ص15.

(4) محمد شفيق:**البحث العلمي (الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية)**، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة، 1985، ص61.

(5) حسين خريف: مرجع سبق ذكره، ص112.

(6) محمد السويدي: **مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري (تحليل سوسيولوجي لاهم مظاهر التغير في المجتمع الجزائري المعاصر)** ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1990، ص85.

(7) كمال بونوح: مرجع سابق.

(8) عبد اللطيف بن اشنهو: **الهجرة الريفية في الجزائر**، ترجمة عبد الحميد الاتاسي، المؤسسة الوطنية للمطبعة التجارية، الجزائر دت.

(9) خليل الصقور: **الهجرة الداخلية _أشكالها_ دوافعها ، آثارها**، دار زهران للنشروالتوزيع، عمان، 2003.

(10) جمال حمود حاهد: **الهجرة القسرية وازمة المستوطنات البشرية**، جامعة الخرطوم، السودان، 2000.

(11) عبد العزيز رأس المال: **كيف يتحرك المجتمع**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص117.

(12) المرجع السابق، ص 114.

(13) مغنية الأزرق: **نشوء الطبقات في الجزائر**، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980، ص37.

(14) عبد العزيز رأس المال : مرجع سبق ذكره، ص117.

(15) المرجع السابق، ص 119.

(16) حسين خريف: مرجع سبق ذكره، ص124.

(17) بشير التيجاني: **التحضر و التهيئة العمرانية في الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2000، ص 81.

(18) المرجع السابق، ص21.

(19) المرجع السابق، ص 24.

(20) حسين خريف: مرجع سبق ذكره، ص 125.

(21) رشيد زوزو: **الهجرة الريفية في الجزائر فس ظل التحولات الاجتماعية الجديدة**، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة قسنطينة ،2008، ص 304.

(22) المرجع السابق، ص305.